

المسافات

تفكير بصوت مقروء



المسافة.. كلمة طالما انطوت في مخيلتي على شيءٍ من الشعرية، لما ترتبط به من صور ذهنية لمساحات ممتدة.. قد لا تخلو من شجرٍ ومنازل، وقد لا تخلو من مفاجأة، وإن خلت من ذلك فلن تخلو من فضاء.. وكم أعشق هذا الفضاء.. الأماكن الرحبة، الممتدة بلا حدود، والتي تخلو من أي شيءٍ آخر غير الأرض والسماء..

غير أن هذه الصورة الشعرية لم تأت في طفولتي عندما دخلت الكلمة قاموسي الصغير أول مرة، بل جاءت عندما امتلأ القاموس بالكلمات، وعندما اتضح لي ذوقي تماماً في الأشياء من حولي، ومنها المسافات التي ما زلت أستمتع بقطعها على قدمي أو بسيارتي على سبيل التنزه، وليس قسرياً كما هو الحال في معظم المرات التي أخرج فيها..

أما في طفولتي الأولى حيث سمعت بالمسافة أول مرة فقد كانت بالنسبة لي امتداد الذراعين لتلمس كتفي الطالبة التي أمامي.. حتى المسافات الحقيقية والتي لم أكن أعلم وقتها أنها تسمى مسافات كانت تخدعني في طفولتي، فالمسافة الاستكشافية "الهائلة" التي قطعتها وحدي يوماً بحثاً عن المغامرة، وأشعرتني بشيءٍ من الرهبة جعلتني أعود ركضاً إلى البيت رأيتها مرةً ثانيةً وقد تجاوزت العشرين من العمر فلم أجدها تستحق تسمية مغامرة لأنها لم تتجاوز المائتي متر..

وتظل المسافات كلمةً غير مؤلمة، إلى أن تسكن الضواحي، عندها تستشعرها ملاً واستنزافاً للوقت مفروضاً عليك، وخاصةً عندما تكون مستعجلاً أو مرهقاً ولا تريد إلا أن تصل إلى وجهتك.. أظن أن استنزافها للوقت هو ما يلفت النظر إلى الجانب

الأبشع فيها.. إنها تأخذ من زمنك المخصص لعمرك وعملك، وراحتك، وترفيهك، وصحبة أحيابك..

غير أن المسافات لا تتحالف مع الزمن فحسب، بل وتتحالف مع أشياء كثيرة قد تكون أكثر تعقيداً.. عندما تفرح بحذائك الجديد، وتحب أن تطيل النظر إليه وتتحدث عنه فيضيق الآخر ذرعاً مبرراً ذلك بأنه مجرد حذاء، تشعر بثمة مسافةٍ بينكما.. المسافات ليست مادية أو زمنية فقط.. إنها أنواعٌ كثيرة، بعضها له وجهٌ أقلّ جمالاً، أو.. أكثر المأ؟

عندما كنت مبتعثة للدراسة لم أكن أعلم إلى أيّ مدى بلغ اشتياقي لأهلي بعد عامٍ من الغياب حتى استيقظت يوماً على حلم غير مريح.. رأيت في المنام أن السفن الفضائية هي وسيلة سفري الوحيدة إلى الدوحة.. وكنت قلقة جداً ومتهيبية من ركوبها، كيف أركب شيئاً يخرجني من الكرة الأرضية تماماً.. ماذا لو خرج عن مساره وضاع في الفضاء.. ماذا لو انفجر، ماذا لو.. ولكن إن لم أركبها، فكيف سأعود وأنا لا أستطيع إلا أن أعود؟ قلقٌ باردٌ لم ينته إلا باستيقاظي من النوم.. عندها علمت أن شعوري ببعد المسافة ترجم نفسه بتلك الرؤيا..

ولكن المسافات لا تكتفي بذلك، فدائماً يظل لها أشكالٌ أخرى..

عندما أسمع بالصدفة أغنيةً كنت أسمعها منذ عشرين سنة أو أكثر فإنها تثير فيّ حزناً وشجناً، لأنها تشعرني بالمسافة التي تتسع بيني الآن في هذا الزمن الأليف، وبينني عندئذٍ وهنالك، حيث مسرح ذلك الزمن الذي أصبح بعيداً موحشاً وبدأت تضع معالمه، وحيث طاقمه قبل أن يتفرق فيتلاشى ويختفي بعضه إلى الأبد.. ها قد ارتدت المسافات ثوب المستحيل...

د. خليفة